" العلم "

ومن الأخلاق القرآنية الكريمة قوله تعالى :﴿.....وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [سورة آل عمران:٧]

والمعنى ، لا يعلم تفسير المتشابه ومعناه الحقيقى إلاَّ الله وحده والثابتون المتمكنون من العلم يؤمنون بالمتشابه وأنه من عند الله ، وكل من المتشابه والمحكم حق وصدق لأنه كلام الله وما يتعظ ويتدبر الا أصحاب العقول السليمة المستنيرة .

ويقول صاحب التفسير الكبير : " يكون العلم بالمتشابه حاصلاً عند الله تعالى وعند الراسخين في العلم ، وهذا القول مروى عن " ابن عباس " ومجاهد والربيع وأكثر المتكلمين ، والراسخ فى العلم هوالذى عرف ذات الله وصفاته بالدلائل اليقينية القطعية وعرف أن القرآن كلام الله تعالى بالدلائل اليقينية فإذا رأى شيئاً متشابهاً ودل القطعى على أن الظاهر ليس مراد الله تعالى علم حينئذ قطعاً أن مراد الله شيئاً آخر سوى ما دل عليه ظاهره ، وأن مراد ذلك الله حق ، ولا يصير كون ظاهره مردوداً سببه في الطعن في صحة القرآن ، وكل من المحكم والمتشابه من عند ربنا ، وذكر كلمة " عند " لمزيد التأكيد .

" وما يذكر إلا أولوا الألباب " هو ثناء من الله تعالى على الذين قالوا " ءَامَنَّا بِهِۦ " ومعناه ، وما يتعظ بما في القرآن إلاَّ ذُوا العقول الكاملة فصار هذا اللفظ كالدلالة على أنهم يستعملون عقولهم في فهم القرآن ، فيعملون الذى يطابق ظاهره دلائل العقول فيكون مُحْكَماً ، وأما الذى يخالف ظاهره دلائل العقول فيكون متشابهاً ثم يعلمون أن لكل كلام من لا يجوز في كلامه التناقض والباطل ، فيعلمون أن ذلك المتشابه لابد أن يكون له معنى صحيح عند الله تعالى ، وهذه الآية دليل على علو شأن المتكلمين الذين يبحثون عن الدلائل العقلية ، ويتوسلون بها إلى معرفة ذات الله ، وصفاته وأفعاله ، ولا يفسرون القرآن إلاَّ بما يطابق دلائل العقول ويوافق اللغة والإعراب والشيء كلما كان أشرف كان ضده أخس ، فكذلك يفسر القرآن متى كان موصوفاً بهذه الصفة ، كانت درجته هذه الدرجة العظمى التى عظم بها الله الثناء عليه ،ومتى تكلم في القرآن من غير أن يكون متبحراً في علم الأصول وفي علم اللغة والنحوكان في غاية البعد عن الله،ولهذا قال النبى- ﷺ - :

" من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار . "

وقد حس عليهم الكتاب ، فمن ظاهر واضح تنزيله ، ومن غامض شكل تأويله ، فالقسم الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر ، والقسم الثانى لصيانة الأسرار عن اطلاع

الأجانب عليها ، فسبيل العلماء الرسوخ في طليق معناه على ما يوافق الأصول ، فما حصل عليه الموقوف فمقابل بالقبول ، وما امتنع من التأثر فيه بمعلول الفكر سلموه إلى عالم الغيب ، وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب فما سنح لمفهومهم من لوائح التعريفات بنوا عليه إشارات الكشف وذلك إن طولبوا باستدامة الستر ، وطي السر تخارسوا عن النطق ، وإن أمروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق ونطقوا عن تعريفات الغيبة ، فأما الذين أبدوا بأنوار البصائر فهم مستضيئون بشعاع شموس الفهم ، وأما الذين ألبسوا غطاء الريب ، وخرموا لطائف التحقيق فنقسم بهم الأحوال وتترجم بهم الظنون ويطيحون في أودية الريب والتلبيب فلا يزدادون إلاَّ جهلاً على جهل ، ونفوراً على شك ، ومن وجد علم من الله فيكون ايمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز ، بل عن صريح الظهور ، وصفاء اليقين وأما أصحاب العقول الصاحية ففى صحبة التذكر لظهور البراهين ويفهم من ذلك أن المتعرض لتفسير القرآن الكريم أن يكون متحصناً بالعلوم ، والمعارف ، والفطانة ، والتروى والعقل الناضج ولذلك لا يعلم تفسيره الحقيقى ، ومقصوده ، وهدفه ، ومرماه إلا الله- سبحانه وتعالى- والراسخون بالعلم ، وكله من عند الله ، وما يتدبر ذلك إلاَّ أصحاب العقول الواعية ، والفكر السليم والقلوب الطاهرة مع الصفاء والنقاء ، والابتهال إلى الله-عزوجل- والانقطاع له ، وهذا يحيى الفكر والفهم والتوفيق ، والهداية إلى تفسير كتاب الله- عزوجل- ، وفهم دقائقة [1] .

ويكرم القرآن الكريم العلماء ، وطبيعة الإسلام تفرض على الأمة التى تعتنقه أن تكون أمة متعلمة ، ترتفع فيها نسبة المثقفين ، وتهبط أوتنعدم فيها نسبة الجاهلين ، لأن حقائق هذا الدين من أصول وفروع ليست طقوساً تنتقل بالوراثة ، أو تعاويذ تضيع بالإيحاء، وتنتشر بالأيهام ، بل هى حقائق تستخرج من كتاب حكيم ، ومن سنة واعية – صلى الله على صاحبها – وسبيل استخراجها لا يتوقف على القراءة المجردة ، بل لابد من أمة تتوافر فيها العقول الذكية والأساليب العالية ، والآداب الكريمة ، ولا ريب أن مدارسة مناهج الإسلام تخلق في أى أمة تعنى بها جواً من الفقه التشريعى القائم على الاوامر والنواهى ، يعنى الحقوق والواجبات ، وجوا من الآداب الإجتماعية الدقيقة المتعلقة

1- لطائف الاشارات جـ ١ ، ص ٢٢٠ وما بعدها .
- القرطبى جـ ٢ ، ص ١٢٥٨ ، وما بعدها .
- مفاتيح الغيب جـ ٤ ، ص ٩٧ ، وما بعدها .
- تلخيص البيان جـ ١٧ .
- تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير جـ ١ ، ص ٣٤٤ ، وما بعدها .

بقاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجوا من البحث الصحيح والاجتهاد المخلص لمد رؤاق الإسلام على ما تفديه العصور من أقضية شتى وشئون متجددة فإذا قَلْتْ هذه العناصر في بيئة ما اضمحل أمر الإسلام، وذليل اغصانه، كما تبلى الشجرة، الباسقة المرتفعة فى أرض ذهب خصبها، وجف ماؤها إن العلم للإسلام كالحياة للإنسان، ولن يجد هذا الدين مستقراً له إلاَّ عند أصحاب المعارف الناضجة، والألباب الحصينة، يقول الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة إبراهيم:٥٢] ويصور أحاديث أهل جهنم فيقول: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [سورة المُلك:١٠] ويقول القرآن الكريم فى الذين طمست مشاعرهم، وماتت مواهبهم واستغلقت أذهانهم: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [سورة البقرة:١٧١]

لذلك يقول الله — عز وجل:- ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة آل عمران:١٨]

وهى شهادة في معنى الإقرار فالكل عبيد له و" أُولوا العلم " هم الذين عرفوا وحدانيته بالادلة القاطعة.

ولذلك قال - ﷺ - : " وإذا علمت مثل الشمس ذا شهد " وهذا يدل على أن هذه الدرجة العالية والمرئية الشريفة ليست إلاَّ لعلماء الأصول.

ويقول " سعيد بن جبير " كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فلما نزلت هذه الآية خرنا سجدا ".

ويقول " الكلبى " : لما ظهر رسول الله - ﷺ - بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان !.

فلما دخلا على النبي - ﷺ - عرفاه بالصفة والنعت.

فقالا له: أنت محمد ؟ قال (نعم).

قالا: وأنت أحمد ؟ قال: (نعم).

قالا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك.

فقال لهما رسول الله - ﷺ -: (سلاني).

فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله.

فأنزل الله تعالى على نبيه - ﷺ - " شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط " فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله - ﷺ - .

وقد قيل: إن المراد بأولى العلم الأنبياء عليهم السلام. وقال ابن كيسان: المهاجرين والأنصار.

وقال "مقاتل" : مؤمنوا أهل الكتاب .

وقال " السدى والكلبي " : المؤمنون كلهم ، وهو الأظهر لأنه عام. وما يؤسده ونميل إليه، والذى يتناسب مع فهم الآية الكريمة حيث قال الله تعالى : " وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ " وهى عامة. وليست خاصة بقوم بأعينهم ، إنما المراد العلماء في كل منهم ، وفي كل عصر من العصور ، وفي كل زمان ومكان وهو الأنسب للفهم ، المتزن المستقيم .

وفي هذه الآية دليل على فضل العلم ، وشرف العلماء ، فلو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه ، واسم ملائكته ،كما قرن اسم العلماء وقال الله تعالى :

" في شرف العلم لنبيه - ﷺ - ﴿..وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [سورة طه:١١٤] ولو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه - ﷺ - أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيد من العلم وقال - ﷺ - " إنما العلماء ورثة الانبياء : " العلماء أمناء الله على خلقه " .

وهذا شرف عظيم للعلماء . وعن البراء قال : " قال رسول الله - ﷺ -:

" العلماء ورثة الانبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان في البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة " .

والعلماء على درجات ، فمن عالم وصفه فَنَـاْء وربانية ، وعالم يعرف احكام حلاله وحرامه ، وعالم يعلم أخبار، وسنته وآثار، ، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسير، وتأويله ومحكمه وتنزيله ، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوى حجمه وتوجيه بحديث يخرجه ، وعالم لاطاقة حتى أحضر، ثم كاشفه فقهر، فالاسم باق ، والعين مَحْوٌ، والحكم طارق ، والعبد محق ، قال قائلهم :

بنوحق غـدوا بـالحق صِـرفاً فنعت الخلْـق فـيم هومـستورُ

ويقول " الزمخشرى " : شبهت دلالته على وحدانيته بشهادة الشاهد في البيان والكشف ، وشهدت الملائكة وأهل العلم بوحدانيته بدلائل خلقه وبديع صنعه .

ويقول " ابن كثير " :

" شهد تعالى وكفى به شهيداً وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم وأصدق القائلين { أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ } أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء إليه وهو الغني عما سواه كما قال تعالى:

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ...﴾ [سورة النساء:١٦٦] ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال " شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ " وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام " .

إن أول ما نزل من آيات القرآن الكريم قوله -سبحانه وتعالى- : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة العلق١:١٩]

وهذه اول صيحه تسمو بقدر القلم ، وتنوه بقيمة العلم ، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة والجهالة الجهلاء ، وتجعل اللبنة الأولى في بناء كل رجل عظيم أن يقرأ ، وأن يتعلم وسما الله- عزوجل- بدرجات العلماء حتى قرنهم بنفسه وملائكته فى الشهادة بوحدانيته والإقرار بعدالته ، كما ذكرناه فى الآية آنفة الذكر "

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [سورة آل عمران:١٨]

فأنى لمن يعيش على هامش الحياة بجهله أن يعرف الحق عن خالقه رب الحياة ، أوحتى يلمح طرفاً من صفات الله العظيمة ، وآياته الكبرى .

لذلك أعز الله تعالى العلماء ، وآثرهم بكرامته وفضله ، قال رسول الله- ﷺ- :

"يقول الله- عزوجل- للعلماء يوم القيامة ، إذا قعد على كرسيه للفصل بين العباد :

" إنى لم أجعل علمى ، وحلمى فيكم إلاَّ وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان فيكم ولا أبالى . " (١) .

1- رواه الطبرانى .

إن المعرفة الجيدة أسبق عند الله من العمل المضطرب ، ومن العبادة الجافة المشوبه بالجهل،والقصور،قال رسول الله- ﷺ -:" قليل العلم خير لكم من كثير العبادة " (١)

وقال - ﷺ -:" فضل العلم خير من فضل العبادة " (٢) .

وقال - ﷺ -:" أفضل العبادة الفقه " (٣) .

وقال - ﷺ -: " يا أبا ذر لأن تغدوتتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلى مائة ركعه ، ولأن تغدوفتعلم بابا من العلم عمل به أوْلم يعمل به خير لك من أن تصلى ألف ركعة " (٤) .

ويقول - ﷺ -: " فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد " .

وروى عن رسول الله - ﷺ -أنه قال : " فضل العالم على العابد سبعون درجة ما بين كل درجتين حضر الفرس السريع المضمر مائة عام وذلك أن الشيطان يضع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه لها ولا يعرفها ."(٥) .

وكل علم نافع للاسلام ، وأمته في شتى الفنون ، ومختلف المعارف سواء أكانت هذه العلوم دينية ، أوكونية ، أوفي الطاقة النووية ، أوفي التاريخ أوالجغرافيا ، أوفي علم النفس ، كل ما يخدم الإسلام ، ويأخذ بيد الأُمة إلى الرقى والحضارة والتمدن فهو علم ، ويثاب عليه مبتكره ومخترعه ، فأصل العلوم جميعاً هوالقرآن الكريم ، وما عداه أمتان وأغصان ، وفروع ، فكل علم نافع يعد علما .

وقال - ﷺ -: " إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض حتى النملة في حجرها ، وحتى الحوت في جوف البحر ليصلون على معلم الناس الخير " (٦) .

وحسبنا أن القرآن الكريم عندما فوه بفضل العلم وجلال العلماء إنما عنى بالعلماء الذين يعرفون عظمة الخالق من عظمة الخلق ، وإنما عنى العلم الذى ينشأ من النظر في النبات والحيوان وشئون الطبيعة الأخرى .

إن علوم الحياة مساويةً لعلوم الآخرة في خدمة الدين ، وتجلية حقائقه .

1- رواه الطبرانى .
2- رواه البزار .
3- رواة الطبرانى .
4- رواه ابن ماجة .
5- رواه الديلمى عن ابى هريرة .
6- رواة الترمزى .

ويقول الله-عز وجل-فى فضل العلم : ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ [سورة النساء:١٦٢]

والمعنى : لكم المتمكنون في العلم والسابقون فيه مثل " عبد الله بن سلام وجماعته "، والمؤمنون من المهاجرين والانصار أصحاب النبى- ﷺ - من غير أهل الكتاب يؤمنون بما انزل اليك وما أُنزل من قبلك يعنى يؤمنون بالكتب والأنبياء جميعا ، ثم يمتدح الله – عز وجل– مقيموا الصلاة والمعطون زكاة اموالهم ، والمؤمنون بوحدانية الله ، وبالبعث بعد الموت هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات الجليلة سنعطيهم ثواباً جزيلا على طاعتهم وهوالخلود في الجنة .

ويقول الله تعالى : ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ [سورة الإسراء:١٠٧]

وهوخطاب للمشركين الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد يعنى آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن ايمانكم به لا يزيده كمالا ، وتكذيبكم له لا يورثه نقصا والعلماء الذين قرأوا الكتب السالفة من صالحى أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا فَخَرُّوا ساجدين لله رب العالمين .

والمعنى إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم واعلم ويقول الله – عز وجل- : ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [سورة مريم:٤٣]

وقد كرر النصح باللطف ، ولم يصف اياه بالجهل الشنيع فى عبادته للأصنام وإنما ترفق ، وتلطف به كلامه يعنى جاءت من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه انت فاقبل نصيحتى واطعنى أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهودين الله الذى لا عوج فيه .

ويقول الحق-سبحانه وتعالى- : ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة الحج:٥٤]

والمعنى ، وأهل العلم أن القرآن الكريم هو الحق النازل من عند الله تعالى فيؤمنوا بهذا القرآن فتخشع وتسكن له قلوب بخلاف من في قلبه مرض وإن الله مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ، ومنقذهم من الضلالة والغواية ، وهاديهم إلى طريق الحق ، وهو طريق النجاح في الدنيا ، والفلاح في الدار الآخرة وبذلك يكون العالم سعيداً في دنياه ، فائزاً برضوان الله فى أخراه .

ويقول الحق-سبحانه وتعالى- في فضل العلم والعلماء :﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة النمل:٤٢]

والمعنى : أمثل هذا العرش الذى رأيته عرشك ؟ ولم يقل أهذا عرشك ؟ حتى لا يكون تلقينا لها ، فقالت كأنه هوأى شبيه له ، ومقارب ، ولم تقل " بلقيس " :

نعم هو، ولا ليس هو. يقول " ابن كثير " : " وهذا غاية في الزكاء والحزم .

وأُوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين هذا من قول سيدنا " سليمان " – عليه السلام– وقال ذلك تحدثاً بنعمة الله : لقد أُوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله ، وبقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها فنحن أسبق منها علماً وإسلاماً .

ويقول الله- عز وجل-: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة العنكبوت:٤٩]

والمعنى : ليس الامر كما حسب الظالمون والمبطلون والمرتابون ، بل هوآيات واضحة الإعجاز، ساطعة الدلالة على أنها من عند الله محفوظةً في صدور العلماء ، ومن خصائص القرآن العظيم أن الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقتين :

أولاهما : الحفظ في السطور.

ثانيهما : الحفظ في الصدور بخلاف غيره من الكتب فإنها مُسَطرة لديهم غير محفوظة في صدورهم،ولهذا دخلها التحريف وقد جاء في صفة هذه الأمة" أناجيلهم في صدورهم " .

وقال الحسن " أعطيت هذه الأمة الحفظ "وكان من قبلها لا يقرأون كتابهم : لا نقرأ ، فإذا أطلقوا لم يحفظ ما فيه الا النبيون ، وما يكذب بها إلاَّ المتجاوزون الحد في الكفر والعناد وهم بذلك ظالمون لأنفسهم .

ويقول " القرطبى " : إتيان التابوت، والتابوت كان من شأنه فيما ذكر أنه أنزله الله على آدم عليه السلام، فكان عنده إلى أن وصل إلى يعقوب عليه السلام، فكان في بنى إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغلبوا على التابوت غلبهم عليه العمالقة: جالوت وأصحابه في قول السدى، وسلبوا التابوت منهم. وهذا أدل دليل على أن العصيان سبب الخذلان، وهذا بَيِّنٌ. قال النحاس: والآية في التابوت على ما رُوِى أنه كان يسمع فيه أنين، فإذا سمعوا ذلك ساروا لحربهم،وإذا هدأ الأنين لم يسيروا ولم يسر التابوت .

وقيل: كانوا يضعونه في مأزق الحرب فلا تزل تغلب حتى عصوا فغلبوا وأخذ منهم التابوت وذل أمرهم، فلما رأوا آية الاصطلام ، وذهاب الذكر، أُنِفَ بعضهم وتكلموا في أمرهم حتى اجتمع ملؤهم أن قالوا لنبى الوقت" يعنى الذى كان في زمنهم " .

أبعث لنا ملكا، فلما قال لهم:ملككم طالوت راجعوه فيه كما أخبر الله عنهم، فلما قطعهم بالحجة سألوه البينة على ذلك، فلما سألوا نبيهم البينة على ما قال، دعا ربه فنزل بالقوم الذين أخذوا التابوت داءً بسببه . وهذا هوانتقام الله – سبحانه وتعالى - من العصاة فلا عقوبة إلاَّ بذنب ، وكان ما حل بهم جزءً وفاقا .

ويمضى القرآن الكريم مبيناً فضل العلم والعلماء فيقول – سبحانه وتعالى - : ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سورة سبأ:٦]

والمعنى : " ويعلم أولوا العلم من أصحاب النبى- ﷺ - ومن جاء بعدهم من العلماء العالمين الذين يعلمون أن هذا القرآن الذى أنزل عليك يامحمد- ﷺ - هوالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وهو حبل الله المتين من حكم به عدل ومن قال به صدق ، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم . وهوأيضا يرشدنا إلى الحق كما يرشد الذين يتمسكون به إلى طريق الله - سبحانه وتعالى- وهوالطريق الغالب الذى لا يُقْهَر، وهوالطريق المحمود ، والله-عزوجل -الحميد المحمود فى ذاته وصفاته وأفعاله .

ويبين الله-عزوجل- في القرآن الكريم درجة العلماء ، كما يبين أقدارهم عند الله - سبحانه وتعالى- فقال – سبحانه وتعالى- :﴿.....يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة المجادلة:١١]

والمعنى : يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره ، وأوامر رسوله- ﷺ - ، والعلماء منهم خاصةً أعلى المراتب ، ويمنحهم أعلى الدرجات الرفيعة في الجنة . يقول الصحابى الجليل "عبد الله بن مسعود " - رضى الله عنه - :"مدح الله العلماء في هذه الآية، ثم قال :

يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبكم فى العلم فإن الله تعالى يقول :

" يرفع الله العالم فوق المؤمن الذى ليس بعالم درجات " .

ويقول الامام الشهيد " سيد قطب " : " والعلم الذى يهذب النفوس ويهذب القلب فيتسع ويطيع ، يؤديان إلى الرفعة عند الله درجات " [1] .

1- فى ظلال القرآن الكريم جـ ٦ ، ص ٣٥١٢ ، بتصرف .

وفي مقابل لرفعة المكان الذى تطوعوا بتركه ورفعوا عنه لاعتبار رآه الرسول - ﷺ - . " والله بما تعملون خبير"

فالله يجزى عن علم ومعرفة بحقيقة ما تعملون ، وبما وراءه من شعور مكنون . وهكذا يتولى القرآن تربية النفوس وتهذيبها ، وتعليمها السماحة والطاعة ، فالدين تحول فى الشعور ، وحساسية فى الضمير.

ويقول " القرطبى " : " بين الله-عزوجل- في هذه الآية ان الرفعة عند الله بالعلم والإيمان ولا بالسبق الى صدور المجالس .

وفي الحديث " فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب " وعنه- ﷺ - يشفع يوم القيامة ثلاثة :

" الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء ، فأعظم بمنزلة هى واسطة بين النبوة والشهادة وذلك بشهادة رسول الله - ﷺ - . والله خبير بمن يستحق الفضل والثواب ممن لا يستحقه .

ويقول " ابن كثير " - رحمه الله تعالى - : " إن الله تعالى خبير بمن يستحق الاحترام والتكريم والتقدير وعلو الشأن والرفعة ، ومن لا يستحق ذلك .

ويروى أن " نافع بن عبد الحارث " – رضى الله عنه – لقي عمر بن الخطاب بعسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟

قال: استخلفت عليهم ابن أبزي .

قال: وما ابن أبزي؟

فقال: رجل من موالينا.

فقال" عمر بن الخطاب ": استخلفت عليهم مولى؟.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض. " يعنى هو قارئ للقرآن الكريم ، وعالم بعلم الميراث وهو المعنى بالفرائض ويحسن القصص في الوعظ والإرشاد ، يعنى يريد أن يقول هو من العلماء " .

فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم - ﷺ - قد قال: "إن الله يرفع بهذا الكتاب قومًا ويضع به آخرين" . (1) فالعلم نور ، ونور الله لا يهدى للعصاة :

سألت وجيع سوء حفظ فارشدنى إلى ترك المعاصى

1- رواه مسلم من غير وجه وكتاب " العلم " من صحيح البخارى .

وأخبرنـــى بـــأن العلـــم نـــور ونـــور الله لا يهـــدى لعاصـــى

وسئل " الخليل بن احمد الفراهيدى " : أيهما أفضل العلم ام المال ؟ فقال " الخليل بن احمد الفراهيدى " : العلم أفضل . قيل له فما بالنا نرى العلماء يزدحمون على أبواب الملوك ولا نرى الملوك يزدحمون على ابواب العلماء ؟

فقال " الخليل بن أحمد الفراهيدى " : لأن العلماء يعرفون حق الملوك والملوك يجهلون حق العلماء .

ثم أنشد قائلاً :

العلم يحيى قلوب الميتين كما تحيا البلاد إذا ما مسها المطر

والعلم يجلى سواد القلوب كما يجلى سواد الظلمة القمر (١)

فانظر أيها الأخ المسلم ، والأُخت المسلمة كيف حث القرآن الكريم على طلب العلم؟وما أعده الله من جزاء في الدار الآخرة للعلماء ، وتكريم في الدنيا بأعلى المراتب وأشرف المناصب فالعلم سعادة في الدنيا ، وسعادة في الآخرة وشرف وتكريم عند الله ورسوله وعند الناس وصدق الله تعالى اذ يقول :﴿.... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ.... ﴾ [سورة الزُّمَر:٩] ويمضى القرآن الكريم مبيناً كرامة العلماء ، ومقدارهم لدى خالقهم فيقول – سبحانه وتعالى- ﴿.....إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة فاطر:٢٨] والمعنى : إنما يخشاه – سبحانه وتعالى - العلماء ، وما ذلك إلاَّ لأنهم عرفوه حق المعرفة فعبدوه ، ووحدوه ، ورضوا به ربا ، وبمحمد - ﷺ - نبيناً ورسولا .

يقول"ابن كثير":"إنما حق خشية"العلماء" العارفون به ، فكل من عرف الله فهوعالم . فكلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر" .

هذه مكانه العلم والعلماء عند الله – سبحانه وتعالى- ولذلك عنى القرآن الكريم بالأخلاق ، وبين أنه لا يعقلها الا العالمون ، لذلك عندما كان العرب الحهلة يطوفون بالبيت عراة ، ويحرمون على أنفسهم ما أحله الله من الطيبات ، ومن التجمل بالثياب التى خلقها الله لهم للنفع والزينة ، والطيبات من المأكل والمشرب بين الله تعالى أنه لا يفقه ذلك الا من خصهم الله بالعلم ، وكرمهم بالفقه ، وهذبهم بالتعليم .

1- مجانى الأدب فى حدائق العرب ، للأب لويس شيخوعوض .

فقال – عز من قائل :- ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف:٣٢].

فهذه الطيبات للمؤمنين ، وإن شاركهم فيها الكافرين في الحياة الدنيا ولكنها ستكون خالصة وخاصة بهم يوم القيامة لا يشاركهم فيها أحد .

والسر في ذلك أن الله حرم المحبة على الكافرين فهى خاصة بالمؤمنين فحسب . وكذلك تبين وتوضح الآيات التشريعية لقوم يتدبرون حكمة الله ويفقهون تشريعه ، وفي هذا تكريم للعلماء ، وإعلاء لأقدارهم حيث خصهم الله – عز وجل – بفهم شريعته ، وأسرار كتابه الكريم وهو القرآن العظيم " .

وفى تكريم وأفضلية العلم يقول الحق-سبحانه وتعالى -:﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة التوبة: ١٢:١١] والمعنى : أن الله -عز وجل- خص العلماء وهم أهل الفقه والفهم بايات كثيرة في كتابه الحكيم مبيناً أن العلماء هم المقصودون بهذا الخطاب لأنهم أهل له ولفهم غايته والحكمة منه ، فقال تعالى يبين الحجج والأدلة لأهل العلم والفهم: " ... وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ... "

وهذا البيان هو" فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يعنى أعطوها فهم إخوانكم في الدين ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم .

وخص العلماء بفهم هذه الأمور ، وفقه تلك القضايا . وفي الآية الآتية ينبه الله تعالى على دلائل قدرته ، ووحدانيته ، وهوبقدرته جعل الشمس مضيئة ساطعة بالنهار كالسراج الوهاج ، كما جعل القمر منيرا بالليل ، وهذا من كمال رحمته بالعباد ، ولما كانت الشمس أعظم جرما خصت بالضياء ، لأنه هوالذى له سطوع ولمعان .

يقول " الطبرى "- " والمعنى : " أضاء الشمس ، وأنار القمر ، وقد سيره في منازل وهى " البروج " ذلك لتعلموا أيها الناس حساب الأوقات ، فبالشمس تعرف الأيام وبسير القمر تعرف الشهور والاعوام ، وما خلق الله ذلك عبثا ، بل لحكمة عظيمة وفائدة جليلة ، وذلك ليبين الآيات الكونية ويوضحها لقوم يعلمون قدرة الله ويتدبرون حكمته .

ويقول " ابوالسعود " : يعنى"يعلمون الحكمة في إبداع الكائنات ، فيستدلون بذلك على شئون مبعثها جل وعلا .

ويقول " صاحب اللطائف": أنوار العقول نجوم ، وهى للشياطين رجوم وللعلوم أقمار، وهى أنوار واستبصار ، وللمعارف شموس،ولها على أسرار العارفين طلوع كما قيل: -

إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب

وكما أن في السماء كوكبين ، شمساً ، وقمراً أبدأ بضيائها ، والقمر في الزيادة والنقصان يستر بمحاقه ، ثم يكمل حتى يصير بدراً ثم يعود جديداً .

وكل ليلة يجد مزيداً ، فإذا صار بدراً تماماً ، ولم يجد أكثر من ليلة لكماله مقاماً ، ثم يأخذون في النقصان إلى أن يخفى شخصه ، ويتم نقصه . كذلك من الناس من هومترددين قبضه وبسطه ، وصحوه ومحوه ، وإيابه ، لا فناء فيستريح ، ولا بقاء له دوام صحيح .

وقيل :

كلما قلت قد دنا ل قيدى كبلونى فأوثقوا المسمارا

ويقول " ابن كثير " فى معنى هذه الآية :- " يخبرنا تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نوراً ، هذا فن ، وهذا فن آخر ففاوت بينهما لئلا يشتبها . وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل وقدر القمر منازل فأول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر كقوله تعالى : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة يس:٣٩: ٤٠] وقوله تعالى : ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [سورة الرحمن:٥] وقوله في هذه الآية الكريمة : {وَقَدَّرَهُ} أي القمر { مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ } فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام .﴿.....مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ .....﴾ [سورة يونس:٥]أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة .

كقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [سورة ص:٢٧]وقال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [سورة المؤمنون ١١٥:١١٦] وقوله : ﴿.....نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ .....﴾ [سورة الأنعام:٥٥]

أي نبين الحجج والأدلة ونوضح الآيات لقوم يعلمون،يعنى أهل العلم والإيمان [1] .

بعد أن حكى الله سبحانه أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة، وتمادوا في الغى والضلالة ، ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء حتى يضطرهم إلى الهجرة عن الديار، ومفارقة الأهل والأوطان ، ذكر هنا حكم تلك الهجرة ، وبين ما لهؤلاء المهاجرين من حسنات في الدنيا وأجر في الآخرة ، من جزاء أنهم فارقوا أوطانهم ، وصبروا وتوكلوا على الله .

وفي هذا ترغيب لغيرهم في الهجرة واحتمال كل أذى في سبيل الله احتساباً للأجر.

فعن قتادة- رضى الله عنه - قال : هؤلاء هم أصحاب محمد- ﷺ - ، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوأهم الله المؤمنين ، فقال- سبحانه وتعالى-:﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة النحل:٤١]

والمعنى: والذين فارقوا قومهم ودورهم ، وأوطانهم ، وذهبوا إلى بلاد أخرى احتسابا لأجر الله ونيلاً لمرضاته من بعد ما نالهم من الكفار من أذى في أنفسهم وأموالهم لنسكننهم في الدنيا مساكن حسنة يرضونها ، إذ هم لما تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله عوضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فمكن لهم في البلاد ، وحكمهم فى رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاماً ، وكان من منهم للمتقين إماما .

ثم ترى أن الله - سبحانه وتعالى- يخبر أن ثوابهم في الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم في الدنيا فقال تعالى:﴿..... وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾

حيث إن ثوابهم في الآخرة " الجنة "التى لا يغنى نعيمها ، ولا يزول خيرها .

1- تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٤٠٧ وأيضا جـ ٤ ، ص ٣٢٦ .
- مجافى الأدب فى حدائق العرب ، للأب لويس شيخوعوض .
- تفسير ابوالسعود جـ ٤ ، ص ٣١٠ .
- البحر المحيط جـ ٤ ، ص ٢٩٢ .
- تفسير الطبرى جـ ١١ ، ص ٨٦ .
- صفوة التفاسير جـ ١ ، ص ٤٤٤.
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٢١٢.
- فى ظلال القرآن الكريم للامام الشهيد سيد قطب جـ ٦ ، ص ٢٥١٢ بتصرف .
- تفسير القرطبى جـ ١٧ ، ص ٣٠٠.
- تفسير الالوسى جـ ٢٨ ، ص ٣٠.
- لطائف الاشارات للامام القشيرى جـ ٢، ص ٧٩ - ٨٠ .

فيروى عن " عمر بن الخطاب "-رضى الله عنه- أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءً يقول له : "خذ بارك الله لك فيه هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ذخره لك في الآخرة أفضل ثم تلا هذة الآية "﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ﴾ [سورة النحل:٤١]

وهؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ، ولم يرجعوا القهقرى وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم ألفة نسب ولا جوار في دار ، وقد فوضوا أمرهم إلى ربهم الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل ما سواه .

ويقول " ابن كثير " : " يخبرنا تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيل ابتغاء مرضاته وهم الذين فارقوا الدار والإخوان والخلان ، رجاء ثواب الله وجزائه . ويحتمل أن يكون سبب نزولها في مهاجرى الحبشة الذين اشتد أذى قومهم لهم بمكة حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة ليتمكنوا من عبادة ربهم ، ومن أشرافهم سيدنا " عثمان بن عفان " ومعه زوجه رقية بنت رسول الله - ﷺ - . وقد قيل فيهم أحسن شخصين رأى إنسان " رقية وبعلها عثمان وجعفر بن ابى طالب عم الرسول- عليه الصلاة والسلام، وأبوسلمة بن عبد الأسود-رضى الله عنهم أجمعين- في جماعة قريب من ثمانية ، ما بين رجل وأمرأة صديق وصديقة . فوعد الله- سبحانه وتعالى- بالمجازة الحسنة في الدنيا والآخرة،فقال -سبحانه وتعالى-﴿.....لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ .....﴾ [سورة النحل:٤١]

يقول " ابن عباس- رضى الله عنهما - والشعبى وقتادة وهى " المدينة وقيل هو" الرزق الطيب " ولا منافاة بين القولين فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم ، فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا ، فإن من ترك شيئاً لله عوضه الله بما هوخير له منه ، وكذلك وقع ، فقد مكن الله لهم في البلاد ، وحكمهم في رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاما .

وكل منهم للمتقين إماماً ، وأخبرنا تعالى أن ثوابه للمهاجرين في الدار الآخرة أعظم مما اعطاهم فى الدنيا ولأجر الآخرة أكبر مما أعطيناهم في الدنيا لوكانوا يعلمون ، يعنى لوكان المتخلفون عن الهجرة منهم يعلمون ما أدخر الله لمن أطاعه ، وأتبع رسوله - ﷺ - ثم وصفهم الله تعالى فقال " الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون " يعنى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله – سبحانه وتعالى - الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة .

ونرى الله-عزوجل-يقول: ﴿.... لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ ﴾ [سورة النحل:٤١]

وهنا يبين المولى- سبحانه- أفضلية العلماء ، فالعلماء يعرفون بلا ريب ربهم حق المعرفة ويؤمنون بما أعده الله من الأجر الجزيل ، والثواب العظيم لمن هاجر في سبيل الله ويعمل في الله ولله .

فهنا يبين-سبحانه وتعالى- أقدار العلماء ، وما وهبه الله لهم من علم ومعرفة وبصر بالأمور ، ولذلك قال تعالى " لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " فالعلم نور للبصيرة والبصر ، وبه يدرك المسلم أين يكون الخير وما الشيء الذى يصلح حاله في دنياه وأُخراه .

ويقول " القرطبى " هم " صهيب " و" بلال " و" خباب " و" عمار " – رضى الله عنهم- والصواب والراجح أن المقصود بالآية جميع المهاجرين في سبيل الله تعالى [1] .

إن التعليم والتعلم روح الإسلام ، لا بقاء لجوهره ، ولا كفالة لمستقبله إلاَّ بهما ، والناس في نظر الإسلام أحد رجلين : إما متعلم يطلب الرشد ، وإما عالم يطلب المزيد من العلم وليس بعد ذلك من يؤبه له .

وقال رسول الله- ﷺ -"العالم والمتعلم شريكان في الخير ، ولا خير في سائر الناس " [2]

ويمضى القرآن الكريم فى الحديث عن العلم فيقول - سبحانه وتعالى-:-﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة النمل:٥٢]

يعنى فتلك بيوتهم خاوية ، ومساكنهم خالية ودورهم خربة وذلك الخراب والدمار بسبب ظلمهم وكفرهم ، فلذلك أهلكهم الله- سبحانه وتعالى- ، وخرب دورهم ومساكنهم إن في هذا الخراب والدمار لمساكنهم عبرةً وعظة لقوم يعلمون قدرة خالقهم ، وتدبير ربهم فيتعظون بذلك ، ويقول " ابن كثير"- رحمه الله تعالى- " فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا " يعنى : فارغةً ليس فيها أحد وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " في ظلاله :" ومن لمحة إلى لمحة إذا التدمير والهلاك ، وإذا الدور الخالية والبيوت الخالية ، وقبل كانوا منذ لحظة واحدة في الآية السابقة من السورة يدبرون ويمكرون ، ويحسبون أنهم قادرون على تحقيق ما يمكرون ، وهذه السرعة في عرض هذه الصفحة بعد هذه مقصودة في السياق ، لتظهر المباغتة الحاسمة القاضية ، وهى

---

1 - تفسير القرطبى ، جـ ١٠ ، ص ١٠٧ .
- تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٥٧٠.
- تفسير المراغى جـ ٥ ، ص ٨٥ – ٨٦ .

٢- رواة ابن ماجة .

مباغتة القدرة التى لا تغلب للمخدوعين بقوتهم ، ومباغتة التدبير الذى لا يخيب للماكرين المستترين بمكرهم .

" إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " والعلم هوالذى عليه التركيز في السورة وتعقيباتها على القصص والأحداث ، وبعد مشهد المباغتة يجئ ذكر نجاة المؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه . ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة فُصِّلَت:١٨]

والذى يخاف الله يقيه- سبحانه وتعالى-من المخاوف فلا يجمع عليه خوفين كما جاء في الحديث القدسى[1] .

وبالنظر إلى المعنى : إن بيوتهم خربة بظلمهم ، ووقع منهم الظلم لجهلهم فلو كانوا يعلمون بعاقبتهم ما فكروا في الظلم ولكن الله أعمى أبصارهم ، وختم على قلوبهم ، فلم يفطنوا إلى ما يكون في صالحهم فى الدنيا والآخرة ، إن هؤلاء اغتروا بأنفسهم ، وجبروتهم وأموالهم ، وسلطانهم ، ومناصبهم فظلموا فكان عقباهم أن خرب الله بيوتهم بظلمهم ، وجعلها خاوية على عروشها ، وأصبحوا عبرةً ، وعظةً لمن كان على علم ، وفقه ، وفطانه ، ولذلك كانوا آية للعلماء الذين يخشون ربهم بالغيب . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

ويبين الله-عزوجل- أيضا قدر العلم ، وقيمة العلماء في فهم ما يكون سبباً في سعادتهم في الدنيا والآخرة فيقول معقباً على القصص القرآنى الذى تمثلت فيه ألوان الفتن ، ومن الصعاب والعقبات في طريق الدعوة ففى قصه نوح- عليه السلام-تتمثل فى ضخامة الجهد المبذول ، وضآله الحصيلة حيث لبث في قومه- عليه السلام- ألف سنة إلاَّ خمسين عاماً ، ولم يؤمن به إلاَّ القليل " فأخذهم الطوفان وهم ظالمون " .

وفي قصة سيدنا : ابراهيم – عليه السلام – يتبدى سوء الجزاء بالحجة والمنطق ، فما كان جواب قومه إلاَّ أن قالوا " أقتلوه أو أحرقوه " وفي قصة " لوط "-عليه السلام- يتبدى تبجح الرذيلة وإعلانها جهاراً نهاراً ، وبدت واضحةً كالشمس في رابعة النهار ، وسقوطها بلا حرج ، ولا استحياء ، وانحدار البشرية إلى الدرك الأسفل من الانحراف ، والشذوذ مع الاستهتار بالنذير.

1- صفوة التفاسير للصابونى جـ ٢ ، ص ٤١٣.
- زاد المسير .
- البحر المحيط جـ ٧ ، ص ٨٥.
- فى ظلال القرآن الكريم للشيخ سيد قطب جـ ٥ ، ص ٢٦٤٦.
- تفسير القرآن العظيم إبن كثير جـ ٣ ، ص ٣٦٨ .

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[سورة العنكبوت:٢٩]

وفي قصة سيدنا " شعيب "- عليه السلام- مع مدين يتبدى الفساد والتمرد على الحق والعدل ، والتكذيب " فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين " وتذكر الإشارة إلى " عاد وثمود " بالاعتزاز بالقوة ، والبطر بالنعمة ، كما تذكر الإشارة إلى " قارون " و" فرعون " و" هامان " بطغيان المال ، واستبداد الحكم ، وتمرد النفاق ويغيب على هذا القصص بمثل يضربه لهو أن القوة المرصودة في طريق دعوة الله ، وهى مهما تمكنت ، واستطالت .

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۘ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة العنكبوت:٤١]

ويقول " ابن كثير": في هذة الآية " هذا مثل ضربه الله – سبحانه وتعالى – للمشركين في اتخاذهم آلهةً من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ، وهنه فليس في أيدى هؤلاء من آلهتهم إلاَّ كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجزى عنه شيئا . فلوأنهم علموا بهذا الحال ، ما أتخذوا من دون الله اولياء .

هذا بخلاف المسلم المؤمن من قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباعه لشرع الله – عزوجل – والتمسك بسنه رسوله – ﷺ – . وفي ذلك التمسك يكون قد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

وذلك لقوتها ومتانتها ، وتماسكها ، وقوة نسيجها ، ثم قال- سبحانه وتعالى- متوعداً لمن عَبَدّ غيره ، وأشرك به ، إنه – سبحانه وتعالى- يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم .

ثم – قال تعالى-﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [سورة العنكبوت:٤٣]. يعنى:وما يفهمها، ويتدبرها الا الراسخون في العلم، والمتضلعون منه .

وعن سيدنا " عمرو بن العاص "- رضى الله عنه- قال : عقلت عن رسول الله- ﷺ - .

" ألف مثل " وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعلمها إلاَّ العالمون وعن " عمرو بن مرة "– رضى الله عنه – قال " ما مررت بآيه من كتاب الله لا أعرفها إلاَّ أحزننى لأنى سمعت الله تعالى يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة العنكبوت:٤٣] .

فإن مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغنى عنها في حر، ولا برد ولامطر، ولا أذى.

يقول" القرطبى " –رحمه الله تعالى-: " هذا مثل ضربه الله - سبحانه وتعالى- لمن أتخذ من دونه آلهه لا تنفعه ولا تضره كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً ، وإن أضعف البيوت لبيت العنكبوت ، لتفاهته وحقارته، لوكانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوها . بل كانوا يفكرون تفكيرا سليما ليعلموا أن هذه المعبودات لا تغنى عنهم من الله شيئا ، ولفكروا فيما ينفعهم في الدنيا والآخرة ، ولوأن هؤلاء استغلوا نعمة العقل التى انعمها الله عليهم واستغلوها في فهم الحقيقة لعبدوا الله- سبحانه وتعالى- ، ووحدوه ، وما أشركوا به شيئا ، فإن العقل نعمة كبيرة أنعم الله بها على الانسان فالعلماء الذين يبتدعون، ويبتكرون ، ويخترعون السفن الفضائية والصواريخ العابرة للقارات ، والقنابل النووية والأسلحة الفتاكة ، والمخترعات العلمية الأخرى التى يعج بها العالم الآن وأصبحت ملء السمع والبصر.

إنهم علماء ويملكون عقولا فذة ، وانهم لمحاسبون عليها في الدار الآخرة يوم الحساب والوقوف بين يدى الله – سبحانه وتعالى- لأنهم لو استغلوا هذه العقول صاحبة الابتكارات العلمية ، والمخترعات النووية لهدوا إلى الطيب من القول ، وهدوا إلى صراط العزيز الحميد ، وعرفوا أن لهذا الكون خالقاً هو: الله – سبحانه وتعالى - الذى خلقهم ، ومن العدم أوجدهم ، وللعلوم سخرهم وهداهم إلى العلم والاختراع .

فلوانهم فكروا قليلاً بما منحه الله لهم من مواهب العلم والفكر لهدوا إلى أنه هو الله، وأن محمداً عبده ورسوله ومصطفاه .

ولذلك قال تعالى : ﴿.....لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.....﴾[سورة سبأ:١٤]، لكنهم لم يعلموا لأن على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوةً . (١)

1- تفسير القرطبى جـ ١٣ ، ص ٣٤٥.
- تفسير الطبرى جـ ٢٠ ، ص ٩٦.
- تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٤١٣ – ٤١٤ .
- فى ظلال القرآن الكريم للامام سيد قطب جـ ٥ ، ص ٢٧٢٦ وما بعدها بتصرف .
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٣ ، ص ٣٧ .

وفي الآية القرآنية الآتية صورة مشرقة ، فالقنوت والطاعة ، والتوجه وهو ساجد قائم، وهذه الحساسية المرهفة وهو يَحْـذَر الآخرة ، ويرجورحمة ربه وهذا الصفاء ، وتلك الشفافية التى تفتح البصيرة ، وتمنح القلب نعمة الرؤية والالتقاط والتلقى .

هذه كلها ترسم صورة مشرقة مضيئة من البشر ، مقابل تلك الصورة النكدة المطموسة التى رسمتها الآية السابقة على هذه الآية التى نحن بصدد شرحها وسير أنوارها، وخبر أسرارها فلا جرم يعتقد هذه الموازنة .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الزُّمَر:٩]. فالعلم الحق هو" المعرفة " وإدراك الحق ، وهوأيضا : تفتح البصيرة والاتصال بالحقائق الثابتة فى هذا الوجود ، وليس العلم هوالمعلومات الفردة المفردة التى تزحم الذهن ، ولا تؤدى إلى حقائق الكون الكبرى ، ولا تمتد وراء الظاهر المحسوس وهذا هوالطريق إلى العلم الحقيقى ، والمعرفة المستنيرة ، هذا هوالقنوت لله وحساسية القلب ، واستشعار الحذر من الآخرة ، والتطلع إلى رحمة الله وفضله ، ومراقبة الله .

هذا هو الطريق ، ومن ثم يدرك اللُّب ويعرف ، وينتفع بما يرى ، وما يسمع وما يجرب ، وينتهى إلى الحقائق الكبرى الثابتة من وراء المشاهدات والتجارب الصغيرة ، فأما الذين يقفون عند حدود التجارب المفردة ، والمشاهدات الظاهرة ، فهم جامعومعلومات ، وليسوا بالعلماء . وهذا هومعنى قول الحق – سبحانه وتعالى - :" ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ " وإنما يعرف أصحاب القلوب الواعية المتفتحة المدركة لما وراء الظواهر من حقائق، المنتفعة بما ترى وتعلم ، التى تذكر الله في كل شيء تراه وتلمسه ولا تنساه ، ولا تنسى يوم لقاه .

ويقول المفسرون في الآية لإستفهام حُذِفَ جوابه لدلالة الكلام عليه أى أم من هومطيع عابد في ساعات الليل يتعبد ربه في صلاته ساجداً ، وقائماً كمن أشرك بالله ، وجعل له أندادا ؟ .

يقول " القرطبى " بين الله تعالى أن المؤمن ليس كالكافر الذى مضى ذكره حال كونه خائفاً من عذاب الآخرة .

راجياً رحمة ربه وهى الجنة ، هل يستوى هذا المؤمن التقى مع ذلك الكافر الفاجر؟ لا يستوون عند الله ، ثم ضرب مثلا فقال سبحانه :" ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ

وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ " يعنى : هل يستوى أويتساوى العالم والجاهل ؟ فكما لا يستوى هذان كذلك لا يستوى المطيع والعاصى ، إنما يعتبر ويذكر ويتعظ أصحاب العقول السليمة .

يقول الإمام " الفخر الرازى " : " واعلم أن هذه الآية دالة على أسرار عجيبة ، فأولها: أنه بدأ فيها بذكر العمل ، وختم فيها بذكر العلم ، أما العمل فهو " القنوت " ، و" السجود " و" القيام " وأما العلم ففى قوله – سبحانه وتعالى - : "قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ؟ " .

وهذا يدل على أن كمال الانسان محصور في هذين المقصودين فالعمل هو البداية والعلم والمكاشفة هى النهاية . وفي وفي الكلام حذف وتقديره .

أمن هو قانت كغيره؟ . وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه ، لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية "الكافر" ثم مثل بالذين يعلمون ، وفيه تنبيه عظيم على فضيلة العلم . أجل إن العلم له أفضلية على كل شيء فليس العالم كالجاهل ، وليس من يعرف كمن لا يعرف وليس من يفطن ، كمن لا يفطن .

وليس من يفقه كمن لا يفقه فمما لا ريب فيه أن العلماء أفضل من الجهلاء وصدق الإمام " على بن ابى طالب "-رضى الله عنه- حين قال : " والجاهلون لأهل العلم أعداء . (١)

إن القرآن الكريم ، كتاب الله وبيانه ، ووحيه وتنزيله ، وهداه وسبيله به قصم الله ظهر كل شيطان مريد ، أذل به كل جبار عنيد ، وهو الذى أحنى رأس " الوليد " ، وآلان قلب " عمر " ، هو الذى سمعته الجن فتهتف قائلة : ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [سورة الجن:١ :٣]

ربوا الشباب على الفضائل والتقى لا تتركوه فريسة الشيطان

---

1 - تفسير ابوالسعود جـ ٤ ، ص ٢ – ٣ .
- تفسير القرطبى جـ ١٢ ، ص ٢٣٨ ، ص ٢٤٢ .
- حاشية زادة على البيضاوى جـ ٣ ، ص ١٩٤ .
- التفسير الكبير جـ ٢٦ ، ص ٢٥٠.
- التسهيل لعلوم التنزيل جـ ٣ ، ص ١٩٢ .
- حاشية الصاوى جـ ٣ ، ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
- مختصر ابن كثير جـ٣ ، ص ٢١٥.
- فى ظلال القرآن الكريم للامام سيد قطب جـ ٥ ، ص ٣٠٤٢ بتصرف .

وخـــذوه بـــالقرآن يحفـــظ نفـــسه فالخير كل لاخيـــر فـــى القـــرآن

ويقول الله-عزوجل-فى تبيان فضل العلماء:﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة فُصِّلَت:٤:٥]

فهوالتفصيل المحكم ، وفق الأعراض والأهداف ، ووفق أنواع الطبائع والعقول ، ووفق البيئات والعصور ، ووفق الحالات النفسية ، وحاجاتها المتنوعة . التفصيل المحكم وفق هذه الاعتبارات سمة واضحة في هذا الكتاب ، وقد فُصِّلت هذه الآيات وفق تلك الاعتبارت،فصلت قرآنا عربياً لقوم يعقلون،يعنى لديهم الاستعداد للعلم والمعرفة،والتمييز.

ويقول " ابن كثير"- رحمه الله- كتاب فصلت آياته يعنى بينت معانية وأحكمت أحكامه فى حال كونه قرآناً عربياً بيناً واضحاً . فمعانيه مفصله وألفاظه واضحة غير مشكلة كقوله تعالى : " كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ " .يعنى وهومعجز من حيث لفظه ومعناه .

قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة فُصِّلَت:٤٢] وقوله تعالى " لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ "

يعنى إنما يعرف هذا البيان والوضوح " العلماء الراسخون في العلم " وهوكتاب جامع للمصالح الدينية والدنيوية بينت معانيه ، ووضحت أحكامه بطريق القصص والمواعظ ، والأحكام ، والامثال في غاية البيان والكمال ، وفي حال كونه قرآناً عربياً غير ذى عوج اضحاً جلياً نزل بلسان العرب لقوم يفهمون تفاصيل آياته ودلائل اعجازه ، فانه في أعلى طبقات البلاغة ، ولا تنبرق أسراره إلا لمن كان عالما بلغه العرب .

ويقول الامام " الفخر الرازى " :" والقرآن مشتمل على كل ما يحتاج اليه المرضى من الأدوية ، وعلى كل ما يحتاج إليه الأصحاء من الأغذية ، فكان أعظم نعمةً عند الله تعالى على أهل هذا العالم ، إنزل القرآن الكريم عليهم وسمى " كتابا " لأنه جمع فيه علوم الأولين والآخرين ، وقد فرقت آياته ، وجعلت تفاصيل في معان مختلفه فبعضها في وصف ذات الله تعالى ، وشرح صفات التنزيه والتقديس ، وشرح كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ، وعجائب أحوال خلقه :

السماوات ، والأرض ، والكواكب ، وتعاقب الليل والنهار ، وعجائب أحوال النبات، والحيوان ، والإنسان وبعضها في أحوال التكاليف المتوجهة نحو القلوب ، ونحو الجوارح وبعضها في الوعد ، والوعيد ، والثواب والعقاب ودرجات أهل الجنة ، ودرجات أهل النار ،

ويعقبها في المواعظ والنصائح وبعضها في تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفس ، وبعضها في قصص الأولين وتواريخ الماضين .

وبالجملة فمن أنصف علم أنه ليس في يد الخلق كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة ، والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن الكريم .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة يوسف:٢]

يعنى : نزل بلغة العرب ولسانهم ، ويؤكد هذا المعنى قوله – سبحانه وتعالى- : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة إبراهيم:٤]

ويعنى باللِّسان اللُّغة والمعنى وما أرسلنا من رسول إلاَّ بلغة قومه ، ليسهل عليه دعوتهم ، وشرح التوحيد لهم والتفاهم معهم بلسانهم ولغتهم ، وجعلناه قرآناً عربياً لأننا أنزلناه على قوم عرب ، فجعلناه بلغة العرب ليفهموا المراد منه وهوتنزيل من الله لأجلهم وكذلك فصلت آياته لأجلهم فالقرآن الكريم لا يفقهه ويعرف معانيه ، ويتدبر آياته إلاَّ العلماء الذين بوسعهم فهم مَرَاجِعِه ، وأهدافه وما يتغياه كتاب الله . (١)

ويبين الله- عزوجل- فضل العلماء ، وكرامتهم عند الله وعند الناس والذين يقدرون العلم ، ويحترمون ذويه ، فبين الله -عزوجل - فضل العلم على غيره فلا يستوى من يعلم من الناس ومن لا يعلم .

إن الذى أنزل إليك يا محمد من ربك وهوالقرآن وهوالكتاب الحق الذى لا ريب فيه، ولا مرية ولا لبس ولا اختلاف فيه بل هوكله حق يصدق بَعْضِه بعضا لا يضاد شيء منه شيئا آخر فأخباره كلها حق ، أوامره ونواهيه عدل يقول تعالى :﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام:١١٥]

يعنى صدقاً في الأخبار ، وعدلاً فى الطلب فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هوأعمى لا يهتدى إلى الخير لا يفهمه ، ولوفهمه ما إنقاد له ولا صدقه ولا اتبعه .

---

1 - تفسير الرطبى جـ ١٥ ، ٣٤١.
- البحر المحيط جـ ٧ ، ص ٤٨١ .
- صفوة التفاسير جـ ٣ ، ص ١١٥ .
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ٤ ، ص ٩٠ .
- فى ظلال القرآن الكريم ، للامام سيد قطب جـ ٥ ، ص ٣١٠٨ .
- مفاتيح الغيب جـ ١٣ ، ص ٥٩١ – ٥٩٢ .

قال تعالى :﴿ لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [سورة الحشر:٢٠]

ويقول الله تعالى هنا :-﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الرعد:١٩]

أى أفهذا كهذا ؟لا يستوون ، إنما يتعظ بذلك ويعتبر ، ويعقل أولوا العقول السليمة ، الصحيحة ندعوا الله-عزوجل- أن يجعلنا منهم فلا يستوى من يعلم والذى لا يعلم أن الذى أنزله الله عليك هو الحق الذى لا ريب فيه والذى لا يعلم ذلك فهوأعمى عن الحق ، لا يهتدى إلى الخير يفهم ولويُسِرَّ له الفهم ما آمن ، وما اهتدى ، وما صدق ، وما اطاع فيظل مشهدوها في ظلمات الجهل ، وغياهب الضلاله .

يقول " قتادة " - رضى الله عنه - هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله ، وعقلوه ، ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله ، إنما يتذكر أولوا الألباب ، يعنى إنما يعتبر بهذه الأمثال ، ويتعظ بها ، ويسير أغوارها ويخبر أسرارها إلاَّ أولوا العقول السليمة والأفكار الرجيحة .

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب" في معنى الآية : ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الرعد:١٩]

إن المقابل لمن يعلم أن أنزل إليك من ربك هوالحق ليس هومن يعلم هذا إنما المقابل هو الأعمى ، وهوأسلوب عجيب فى لمس القلوب ، وتجسيم الفريق .

وهوالحق فى الوقت ذاته ، لا مبالغة فيه ولا زيادة ، ولا تحريف .

فالعمى وحده هوالذى ينشئ الجهل بهذه الحقيقة الكبرى الواضحة التى لا تختفى إلاَّ على أعمى والناس إزاء هذه الحقيقة الكبيرة صنفان :

مبصرون فهم يعلمون ، وعمى فهم لا يعلمون ، والعمى عمى البصيرة وانطماس المدارك ، وأستغلاق القلوب ، وانطفاء قبس المعرفة في الأرواح وانفصالها عن مصدر الاشعاع .

" إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ " وهم الذين لهم عقول وقلوب مدركه تذكر بالحق فتتذكر ، وتنتبه إلى دلائله فتتفكر ، وهذه صفات أولى الألباب ، هؤلاء الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، وهوعهد مطلق يشمل كل عهد وميثاق مطلق ينتظم به كل ميثاق ، والعهد الأكبر هو عهد الإيمان ، والميثاق الأكبر هو الوفاء بمقتضيات هذا الإيمان .

والاستفهام في قوله تعالى " أفمن يعلم " أستفهام أنكارى توبيخى يعنى هل يستوى من آمن وصدق بما نزل عليك يا محمد بمن بقى يتخبط في ظلمات الجهل السعدى

لا عقل له كالأعمى ، يقول " ابن عباس " – رضى الله عنهما – : "نزلت هذه الآية في " حمزة وأبى جهل " ، إنما يتعظ بآيات الله ، ويعتبر بها ذو العقول السليمة والألباب الراجحه ، والبصائر المستنيرة ، وهنا يُبَيّن القرآن الكريم فضل العالم على غيره من الذين يتمتعون بالجهالة الجهلاء والأمية النكراء .

والعالم بصير بالأمور يملك حساً مرهفاً وقلباً واعياً ، ولساناً ذاكراً ، فلا يستوى بمن أعمى عن الهدى والذى يرتع في ظلمات الجهل والكفر. (١)

ومن الآيات القرآنية الكريمة التى تحث على العلم قول الحق-سبحانه وتعالى- ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [سورة الكهف:٦٥]

والمعنى : وجد " الخضر "– عليه السلام – عند الصخرة التى فقد عندها الحوت وفي الحديث أن " موسى " وجد " الخضر " مسجى بثوبه مستلقيا على الأرض فقال له : "السلام عليك " ، فرفع رأسه وقال له : " وأنى بأردك السلام ؟ . والخضر ليس نبياً وإنما هومن عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين ، وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليماً للخلق " فضل العبودية "وقد وهبناه نعمة عظيمة ، وفضلا كبيرا ، وهى الكرامات التى أظهرها الله على يديه .

وعلمناه من لدنا علما خاصا بنا لا يعلم الا بتوفيقنا وهوعلم الغيوب قول العلماء:

" هذا العلم الربانى ثمرة الاخلاص والتقوى ويسمى " العلم اللَّدَني " يورثه الله لمن أخلص العبودية له ، ولا ينال بالكسب والمشقة ، وإنما هو هبه الرحمن لمن خصة الله بالقرب ، والولاية ، والكرامة .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى-: ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [سورة الكهف:٦٦:٦٧]

والمعنى :" هل تأذن لى في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني في حياتى ؟

وهذه مخاطبة فيها ملاطفة ، وتواضع من نبى الله الكريم - ﷺ - وكذلك ينبغى أن يكون الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه .

---

1 - تفسير المراغى جـ ٥ ، ص ٩١-٩٢ .
- تفسير ابن كثير جـ ٥ ، ص ٥٠٩ .
- فى ظلال القرآن جـ ٤ ، ص ٢٠٥٩ .
- الطبرى جـ ١٣ ، ص ١٣٤ .
- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ٨٠ .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى-: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه:١١٤]

والمعنى جل الله - سبحانه وتعالى- وتقدس الملك الحق الذى قهر سلطانه كل جبار عما يصفه به المشركون من خلقه ، وإذا أقرأك جبريل القرآن فلا تعجل معه ، بل استمع إليه ، واصبر حتى يفرغ من تلاوته ، وحينئذ تقرأ أنت .

يقول " ابن عباس "- رضى الله عنهما - :

" كان- عليه السلام- يعاد " جبريل " فيقرأ قبل أن يفرغ " جبريل " من الوحى ، حرصاً على حفظ القرآن ، ومخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك ، يقول " القرطبى " : وهذا مثل قوله تعالى:- " لا تحرك به لسانه لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه " والمعنى لا تتعجل بالقراءة يا محمد - ﷺ - قبل فراغ " جبريل " من قراءته فعلينا جمع القرآن في صدرك ، ثم علينا بيانه وتفسيره .

" ..... وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ..... " .

يعنى سل الله-عزوجل- زيادة العلم النافع .

يقول " الطبرى " أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم . ويقول الحق – سبحانه وتعالى:-﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٨٠]. والمعنى : علمنا " داود "- عليه السلام- صنع الدرع وكان ذلك بالإلهام الحديد له يقول " قتادة "-رضى الله عنه- : " أول من صنع الدرع " داود "-عليه السلام- وكانت صفائح ، فهو أول من سردها وجعلتها لتقيكم في القتال شر الأعداء ، ثم قال تعالى ﴿....فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وهو استفهام يراد به " الأمر "يعنى أشكروا الله على ما انعم به عليكم .

يقول الحق- سبحانه وتعالى- : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۛ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الفرقان:٥٩]

والمعنى : إن هذا الإله العظيم الذى ينبغى أن نتوكل عليه هو القادر على كل شيء فهو الذى خلق السماوات السبع والأرضين السبع . خلق السماوات السبع في ارتفاعها واتساعها ، والارضين السبع في كثافتها وأمتدادها في ستة أيام من أيام الدنيا .

يقول " ابن جبير " : " الله قادر على أن يخلقها في لحظة ، ولكن علم خلقه الرفعه والتثبيت ثم استوى على العرش استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ، وهو الرحمن ذوالجود والإحسان فسأل عنه من هو خبير عارف بجلاله ورحمته .

وقيل المراد : فاسأل الله الخبير بالأشياء ، العالم بحقائقها يطلعك على جَلِيّة الأمر والقول الأول أظهر وأصح ، والثانى مروى عن " مجاهد " – رضى الله عنه – ، وفي الآية آنفة الذكر وإن لم يذكر لفظ " العلم " صراحةً ولكن القارئ يفهمها ضمنا ومن فحوالكلام ، حيث يقول الحق- سبحانه وتعالى – : ﴿....فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ ولا يكن أن يكون خبيرا الا إذا كان عالما بالأمور ويواطنها ، عارفا بالأسرار مطلعا على الحقائق ، ولا يكون خبيرا إلاَّ إذا كان عالماً عارفاً فهنا ذكر العلم بطريقة الخبرة ، فالخبرة علم .

ويمضى القرآن الكريم في الحديث عن العلم مبينا قيمته ، وفضله وأهميته ، ونفعه ، وخيره للناس أجمعين فيقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة النمل: ١٥: ١٦]

يخبر المولى – عز وجل- عما أنعم به على عبده ونبيه " داود "وابنه " سليمان " – عليهما السلام – من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة ، وما جمع بهما بين سعادة الدنيا والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا، والنبوة والرسالة في الذين ولهذا يقول المولى – سبحانه وتعالى :- " وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ " .

ويروى أن " عمر بن عبد العزيز" كتب فقال : " إن الله لم ينعم على عبد نعمة فيحمد الله عليها إلاَّ كان حمده أفضل من نعمه ، ولوكنت لا تعرف ذلك إلاَّ في كتاب الله المنزل ، قال الله تعالى : " وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ " .

فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان – عليهما السلام – وورث " سليمان " " داود " في الملك والنبوة . وليس المراد به وراثة المال لم يخص " سليمان " وحده من بين سائر أولاد " داود " فإنه قد كان " لداود " مائة امرأة ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله- ﷺ - في قوله :

" نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهوصدقة "، وقد أخبر" سليمان " بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير، وكان يعرف لفظة الطير والحيوان .

وهذا شيء لم يعطه لأحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به ورسوله- ﷺ – ومن زعم من الجهلة الرعاع أن الحيوانات كانت تنطق مثل بنى آدم قبل " سليمان ابن

داود " فهوقول بلا علم ، وجهالة جهلاء ، ولوكان الامر كذلك لم يكن لتخصيص " سليمان " -عليه السلام- بذلك فائدة اذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول ، وليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا على هذا الشكل والمنوال ، ولكن الله- سبحانه وتعالى- كان أفهم "سليمان "- عليه السلام- ما يخاطب به الطيور في الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف اصنافها ، ولهذا قال تعالى :﴿.....عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ .....﴾ [سورة النمل:١٦]

يعنى مما يحتاج إليه الملك إن هذا لهو الفضل المبين ، يعنى الظاهر البين علينا .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه - أن رسول الله- ﷺ- قال : " كان داود – عليه السلام – فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، قال ، فخرج ذات يوم وَأُغلِقت الأبواب فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار .

فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟

والله لنفتضحن بداود فجاء داود – عليه السلام – فإذا الرجل قائم وسط الدار ، فقال له داود : من انت ؟

فقال : الذى لا يهاب الملوك ، ولا يمتنع من الحجاب ، فقال داود – عليه السلام – أنت إذاً والله ملك الموت . مرحبا بأمر الله فتزمت داود مكانه حتى قبضت نفسه ، وحتى فرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس .

فقال " سليمان " – عليه السلام – للطير : " أظلى " داود " فظلَّلت عليه الطير حتى أظلمت عليه الأرض ، فقال لها " سليمان " – عليه السلام – اقبضى جناحاً جناحاً ، يقول "ابو هريرة " – رضى الله عنه - يا رسول الله ، كيف فعلت الطير ؟ فقبض رسول الله - ﷺ -يده وغلبت عليه يومئذ المضرحية وهى النسور الحمراء .

وفي مجال العلم والتعليم ، والتعلم يقول الحق – سبحانه وتعالى - :﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة القصص ١٣: ١٤]

والمعنى : فرددناه إلى أمه كى تقر عينها به ، ولا تحزن عليه ، ولتعلم أن الله وعدها وعد الحق من رده اليها وأن جعله من المرسلين . فحينئذ تحققت بَرده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته في تربيته ما ينبغى له طبعاً وشرعاً ولكن أكثرهم لا يعلمون

حكم الله في أفعاله، وعواقبها المحمودة ، التى هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة، فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محموده في نفس الأمر وذلك لقوله تعالى : ﴿....وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [سورة البقرة:٢١٦]وقال تعالى :-﴿.....فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [سورة النساء:١٩]

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢﴾ [سورة يوسف:٢٢]

يقول " مجاهد "-رضى الله عنه- يعنى النبوة .

ومعنى قوله " حكما " يعنى حكمة مثله قول رسول الله -ﷺ-: " إن من الشعر لحكما " .

والمعنى إن من الشعر لحكمة ، والحكمة في الأدب العربى تعج بها مصادر الأدب فاطلبها في مظانها الرئيسية .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [سورة العنكبوت:٤٩]

يعنى : هودلائل واضحة في صدور الذين وهبهم الله العلم ، لا لبس فيها ولا غموض ولا شبهة فيها ولا ارتياب . دلائل يجدونها بينةً في صدورهم تطمئن اليها قلوبهم ، فلا تطلب عليها دليلاً وهى الدليل والعلم الذى يستحق هذا الاسم تجده في الصدور في قرارتها مستقراً فيها ، منبعثاً منها ، يكشف لها الطريق ويصلها بالخيط الواصل إلى هناك ، وما يجحد بآياتنا الا الظالمون ، لا يعدلون في تقدير الحقائق ، وتقويم الأمور ، والذين يتجاوزون الحق والصراط المستقيم .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى -: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾ [سورة الروم:٢٢]

والمعنى : ومن آياته خلق السماوات والأرض ، واختلاف لغاتكم ، وذلك بأن علم كل صنف لغة ، وألهم وضعها ، وأقدر عليها ، وقيل إن المراد اختلاف أجناسكم ، نطفكم وأشكالكم ، فإنه لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية وكذلك الاختلاف في بياض الجلد وسواده ، أو تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وألوانها ، وحلاها ، بحيث يقع التمايز والتعارف حتى إن التوأمين مع اتفاق موادهما ، وأسبابهما ، والأمور الملاقية لهما في التخليق يختلفان في شيء من ذلك لا محاله ، إن في ذلك لآيات للعالمين ، لا تكاد تخفى

على عاقل من ملك أو إنس ، أوجن ويؤيد ذلك قول الحق – سبحانه وتعالى – :﴿... وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة العنكبوت:٤٣]

ويقول الإمام الشهيد " سيد قطب " :

" ومع آية السماوات والأرض عجيبة اختلاف الألسنة والألوان بين بنى الإنسان ولا بد أنها ذات علاقة بخلق السماوات والأرض . فأختلاف الأجواء على سطح الأرض واختلاف البيئات ذلك الاختلاف الناشئ من طبيعة وضع الأرض الفلكى ، ذو علاقة باختلاف الألسنة والألوان مع اتحاد الأكل والنشأة في بنى الإنسان ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا..... ﴾ [سورة الروم:٧]

وآية خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان لا يراها ولا يفطن اليها ، ولا يعقلها الا الذين يعلمون ، ولذلك يقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿.....فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة الروم:٢٢] ويقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الروم:٥٦]

والمعنى : وأولوا العلم هؤلاء هم فى الغالب المؤمنون الذين آمنوا بالساعة وأدركوا ما وراء ظاهر الحياة الدنيا ، فهم أهل العلم الصحيح ، وأهل الإيمان البصير وهم يردون الأمر هنا إلى تقدير الله وعلمه " لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ " ، فهذا هو الأجل المقدر ، ولايهم طويلاً كان ام قصيراً ، فقد كان ذلك هو الموعد وقد تحقق " فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون " .

ويقول الحق - سبحانه وتعالى -:﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [سورة ص:٢٠]

والمراد أنه تعالى شدد ملكه بما يقوى الدين ، وأسباب سعادة الآخرة والمراد تشديد ملكه في الدين والدنيا ، ومن لا يملك نفسه عن القتل والفجور كيف يليق به ذلك ؟ وآتيناه الحكمة وهى اسم جامع لكل ما ينبغى علماً وعملاً . فكان ملكه قوياً عزيزاً وكان يسوسه بالحكمة والحزم جميعا .

" وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ " هوقطعه والحزم فيه برأى لا تردد فيه ، وذلك مع الحكمة والقوة وهى غاية الكمال في الحكم والسلطان في عالم الإنسان ، ومع ذلك هذا كله فقد تعرض " داود " -عليه السلام – للفتنه والابتلاء ، وكانت عين الله عليه تكلأه وترعاه ،

وتثبت خطاه ، وكانت يد الله معه تكشف له ضعفه وخطأه ، وتوقيه خطر الطريق ، وتعلمه كيف يتوقاه .

ويقول الحق- سبحانه وتعالى - : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة محمد:١٩]

وهوالتوجيه إلى تذكر الحقيقة الأولى التى يقوم عليها أمر النبى- ﷺ - ومن معه .

" فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ " وعلى أساس العلم بهذه الحقيقة واستحضارها في الضمير تبدأ التوجيهات الأخرى . " وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ " .

علما بأنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ولكن هذا واجب العبد المؤمن الشاعر ، الإحساس الذى يشعر أبدا بتقصير، مهما كان جهد ، ويشعر وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، الاستغفار ذكرٌ وشكرٌ على الغفران ، ثم هو اليقين المستمر لمن خلف رسول الله - ﷺ - ممن يعرفون منزلته عند ربه ويرونه يوجه إلى الذكر والاستغفار لنفسه قم للمؤمنين والمؤمنات ، وهوالمستجاب الدعوة عند ربه .

فيشعرون بنعمة الله عليهم وهويوجههم لأن يستغفر لهم ليغفر لهم .

ويقول تعالى وهى المسة الأخيرة في الآية " وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ " حيث إن القلب المؤمن يشعر بالطمأنينة والحقوق معا ، الطمأنينة وهوفي رعاية الله حينما تقلب أوثوى ، والخوف من هذا الموقف الذى يحيط به علم الله ويتعقبه في كل حالاته ، ويطلع على سرة ونجواه ، إنها التربية ، على اليقظة الدائمة ، والحساسية المرهفة ، والتطلع والحذر ، والانتظار .

ويقول الله - عز وجل- في العلم وأهله :-

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الجمعة:٢]

فالأميون هم العرب ، كما قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران:٢٠]

وتخصيص الأميين بالذكر لا ينبغى من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر، كما قال- عز وجل-في قوله : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ..... ﴾ [سورة الزُّخرُف:٤٤]

هو ذِكْر لغيرهم يتذكرون به ، ومثل قوله تعالى :﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [سورة الشعراء:٢١٤]وهذا وأمثاله لا يتنافى مع قوله تعالى :﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [سورة الأعراف:١٥٨] وقوله – سبحانه وتعالى - :﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأنعام:١٩]وقوله - عز وجل -:﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة هود:١٧]

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته - ﷺ -إلى جميع الخلق أحمرهم ، وأسودهم ، وهذة الآية هى مصداق إجابة الله لخليله " سيدنا ابراهيم " – عليه السلام – حين دعا لأهل مكة " أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلوعليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله - سبحانه وتعالى - على حين فترة من الرسل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وقد مقت الله أهل الأرض عربهم ، وعجمهم ، إلاَّ بقايا من أهل الكتاب ، أى قدراً يسيراً مما بعث الله به " عيسى بن مريم " – عليه السلام – ولهذا قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [سورة الجمعة:٢]

وذلك أن العرب كانوا قديما متمسكين بدين " ابراهيم " الخليل – عليه السلام – فبدلوه وغيروه ، وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركا ، وباليقين شكا ، وابتدعوا أشياءً لم يأذن بها الله .

وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها ، وغيروها ، وأولوها فبعث الله محمداً - ﷺ - بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ، ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، أورضى الله عنهم ، والنهى عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما يعطى أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين – فصلوات الله وسلامه عليه – إلى يوم الدين .

ويقول-سبحانه وتعالى-:﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ١﴾ [سورة القلم:١] وفي هذه الآية الكريمة يقسم الله – سبحانه وتعالى – " بنون" و" القلم " وبالكتابة والعلاقة واضحة بين الحرف " نون " بوصفه أحد حروف الأبجدية وبين القلم ، والكتابة .

فأما القسم بها فهوتعظيم لقيمتها أوتوجيه اليها في وسط الأمة التى لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق وكانت الكتابه فيها مختلفة ونادرة في الوقت الذى كان دورها المقدر لها في علم الله يتطلب نموهذه المقدرة فيها وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى إرجاء الأرض . ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة راشدة . وما من شك في أن الكتابة عنصر أساسى في النهوض بهذه المهمة الكبرى .

ومما يؤكد هذا المفهوم أن يبدأ الوحى بقوله – سبحانه وتعالى – :﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ٥﴾ [سورة العلق: ١ : ٥]

وهذا خطاب موجه للنبى- ﷺ - الأمى الذى قدر الله أن يكون أُمياً لحكمة يعلمها الله تعالى ، وربما نعلمها نحن فشاء الله أن يكون أميا حتى لا يقال إنه استقى هذا المنهج وقبسه من فكر أبيه ، أوفكر أمه ، أوهوفكر من ثقافة قوم آخرين ، لذلك يقول النبى – ﷺ -: " أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، بيد أنى من قريش وربيت في بنى سعد " . وقد بدأ الوحى إليه منزها بالقراءة والتعليم والتعلم ، ثم أكد هذه اللَّفتة في الآية الكريمة والتى نحن بصدد شرحها .

أكد ذلك بالقسم " بنون " و" القلم " وما يسطرون .

وكان هذا حلقة من المنهج الآلهى لتربية هذه الأُمة ، وإعدادها للقيام بالدور الكونى الضخم الذى قدره لها في علمه المكنون . يقسم الله – عزوجل – بنون والقلم وما يسطرون منوها بقيمة الكتابة مُعظَماً لشأنها ، كما أومأنا إلى ذلك آنفا لينفى عن النبى – ﷺ – تلك الفرية ، والأكذوبة التى رماها بها المشركون ، مستعداً لها ونعمته على رسوله ترفضها ، " ما أنت بنعمة ربك بمجنون " .

ويقول الله – عزوجل – : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ٦﴾ [سورة التكاثر: ٢:٦]

والمعنى : ارتدعوا انزجروا فلوعلمتم العلم الحقيقى الذى لا ريب فيه ولا اهتداء ، ولا شك لوأنكم عرفتم ذلك لما ألهاكم التكاثر بالدنيا عن طاعة الله – عزوجل – ولما خدعتم

بنعيم الدنيا عن أهوال الآخرة ، وشدائدها ، يقول -ﷺ-: " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً " .

وهو جزء من حديث رواه البخارى وهو: " إِنِّى أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَلاَ تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى - أَوْ إِلَى - الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ "

ويقول صاحب التسهيل :

" وجواب " لو" محذوف والتقدير " لو تعلمون لازدجرتم ، واستعددتم للآخرة ، وإنما حذف لقصد التهويل فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله مثل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأنعام:٢٧]

هذا هو العلم الذى مَجَّدَهُ اللّه - عزوجل - في كتابه الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، كما ذكر لأقدار العلماء فبينا فضلهم على سائر العباد ، وأنهم قوة عظيمة ضد الشيطان وذلك بسلطان علمهم ، وغزير معارفهم فإن عالما واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، وهى في الوقت نفسه دعوة إلى التعليم ، ونشر العلم ، وطلب العلا والمعارف ، وصدق الشاعر اذ يقول :

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم ... لم يبن ملك على جهل وإقلال

ويقول أيضا :

والمال إن تدخره محصنا ... بالعلم كان مطية الاخفاق (١)

1- صفوة التفاسير جـ ٢ ، ص ١٩٨ ، جـ ٣ ص ٥٩٨ .

- تفسير الطبرى ، جـ ١٦ ، ص ٢٢٠ ، جـ ١١ ، ص ٤٢٠ .
- القرطبى جـ ١١ ، ص ٢٥٠.
- حاشية الصاوى على الجلالين جـ ٣ ، ص ٦٦
- مختصر تفسير ابن كثير جـ ٢ ، ص ٤٩٦ ، ص ٥١٦
- حاشية الشهاب على البيضاوى جـ ٧ ، ص ١١٧
- تفسير القرآن العظيم لأبن كثير جـ ٣ ، ص ٣٥٨ ، ص ٣٨٢ ، جـ ٤ ، ص ٣٦٣
- فى ظلال القرآن الكريم جـ ٥ ، ص ٢٧٦٤ وأيضا ص ٢٧٧٧ ، ص ٣٠١٧ ، جـ ٦ ص ٣٦٥٤
- مفاتيح الغيب جأ ١٣ وص ٣٠٢ .